رواية

أمين الأنصاري

# أمير المحدثين

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

البخاري

بسم الله الرحمن الرحيم

الكتـــــــاب: أمير المحدثين (رواية)

المـــؤلـــــف: أمين الأنصاري.

رقـــم الإيـــداع: ٢٠٢٠/٣٨٤٤

الترقيم الدولـي: 978-977-6677-94-4

تنسيق داخلـــي: newtouch

تصميم الغلاف: ناجي جلال

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التصميم والإخراج الفني

New Touch advertising

Nagi Galal

(002)26 99 08 99 0101 203 2005

newtouch.eg@gmail.com

دار الفتح للنشر والتوزيع (جمهورية مصر العربية)

( عرب الرمل - قويسنا - منوفية ) ، (كفر الجزار - بنها - قليوبية)

00201154555818 00201022868004

دار الفتح للنشر والتوزيع info@darolfath.com

www.darolfath.com

بسم الله الرحمن الرحيم

«لو كان البخاري في الصحابة؛ لكان آية».

قتيبة بن سعيد الثقفي

المسلمون بخير ما بقيت لهم

وليس بعدك خيرٌ حين تُفتقدُ

أهل بغداد

# شمس الإسلام لن تغيب

إن الحضارة الإسلامية باقية ما بقيت الدنيا، وسَيَبْلغ الإسلام فيها ما بَلغ الليل والنَّهار،

وفي الصفحات التالية سنحيا مع أحد أبناء هذه الأمة، والذي حفظ الله به سُنَّة رسوله العظيم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وبينما تمتلئ نفسي فرحة غامرة إذ أنقل لكم صفحات مضيئة من حياة أمير أهل الحديث، فإن أناملي لترتعش وأنا أكتب عن هذا الإمام الكبير، وإن قلمي ليرتجف عندما أُسطر به حياة هذا العالم الفريد، تعظيمًا لقدره، واعترافًا بفضله في حفظ الإسلام والدفاع عن رسولنا الكريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأنا أشعر أن قارئي الكريم سيشعر بذات شعوري عندما تصافح عيناه تلك الصفحات المشرقة للإسلام في حياة محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال العالم الصيني (لي جوان): الحضارة الإسلامية أقوى حضارات الأرض، وقادرة على اجتياز أيِّ عقبات تواجهها؛ لأنها حضارةٌ إنسانية الطبع، عالية الأداء، رفيعة القدر، وبعدما تعمقت في الأدب العربي الحديث، والقديم، ازدادت قناعتي بأن الشرق يمتلك سِحر الحضارة والأدب والثقافة وأنه صاحب الكلمة المفكرة، والعقلية المُنَظَّمة.

وقد كان البخاري قمرًا في سماء تلك الحضارة.

كان البخاري حافظًا ومُحدثًا  جمع الصحيح مكمل التحريرِ

ميلاده (صدقٌ) ومدةِ عمرِهِ  فيها (حميدٌ) وانقضى في (نورِ)

١٩٤هـ  ٦٢  ٢٥٦هـ

# بين يدي الأمير

## لمحة عن بخارى السلمة:

كانت (بُخَارَى) تلك المدينة الجميلة من بلاد خُراسان أعظم بلاد ما وراء النَّهر من بلاد فارس، حيث تقع على ضفاف نهر جيحون، والتي كانت عاصمة الملوك السامنيين.

وفي العام ٥٥هـ من هجرة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد استعدت خراسان لاستقبال أعظم وافد، وأطهر رافد، وهو دين الإسلام، تلك البلاد الباردة التي هبَّت عليها رياح الإسلام الدافئة؛ ففتحها القائد المسلم سعيد بن عثمان رَحِمَهُ اللَّهُ.

فأثمرت على أرضها أحلى الثمار، وتفتحت في بساتينها أبهى الأزهار، ولِتُضِيف إلى جمال أرضها وطبيعتها جمالًا في دينها وعقيدتها.

وكان زين نتاجها، ودُرَّة تاجها هو محمد بن إسماعيل البخاري.

كان والد البخاري صاحب فضل، وسليل علم، فقد رافق الفضلاء، وجالس الفقهاء، وصاحب أكابر العلماء.

وصحب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ورَوى عنه الحديث.

ورأى عبد الله بن المبارك فأخذ من زهده وتعلَّم من وَرَعِه، حتى قال عند موته: «لا أعلم درهمًا من مالي فيه شُبْهة».

وكان محمد بن إسماعيل البخاري في ذلك كله يتقلَّب بين حبال العلوم، و هضاب الفقه ورتع في مراعي الحلال، فطاب ظاهرًا وباطنًا، وصفا في مظهره ومخبره.

واستعد لحمل أمانة عظيمة، رشحته لها أقدارٌ قد سُطِرت في السماء؛ لتهبط ببركتها على الأرض في بخارى.

فقد رُبِي في حجر العلم حتى رَبَا، وارتضع ثدي الفضل منذ الصبا، وأدرك ذلك إمام عصره وفريد دهره أحمد بن حنبل عندما قال:

«ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل».

# هِبَات في السَّحَر

في ليلة هادئة من ليالي بُخَارَى السَّاحِرة، وفي أحد بيوت العِلم الطَّاهِرة؛ قامت أم محمد ليلتها كعادتها في الصلاة والدعاء والتضرع والبكاء، فإن لها وَلَدٌ ضريرٌ فَقَدَ بصره وهو صغير ومن قبلها فَقَدَ والده العالِم الكبير.

وظلت الأمُّ في مناجاتها لربها كي يشفي صغيرها، وهي تدعوا بقلبٍ مكلوم، لولدها الحروم من بصره، تفعل ذلك في كل ليلة، حتى وضعت رأسها على وسادتها وهي باكيةٌ داعية.

ولكن الليلة ليست كسابقتها من الليالي فهذه المرَّة قد نزلت عليها السَّكينة، وملأ قلبها الطمأنينة وداعبتها نسماتٌ عليلة من نسيم الليل الجميل.

حتى غلبتها عينُها وذهبت في غفوة لطيفة ليبعث الله إليها بهدية من هدايا السَّحَر الخفية.

فرأت في نومها نورًا لؤلؤيًا مستنيرًا كالشمس في ضحاها والقمر إذا تلاها، فإذا به النبيُّ الكريم خليل الله إبراهيم عليه السلام، يَزف إليها ما يَسُرُّها، وأن الله سيكشف عنها ما يضرها، فقال لها:

«إن الله قد ردَّ على ابنك بصره

بكثرة دعائك وبكائك».

فاستيقظت الأم الصابرة ضاحكة مُستبشرة في نشاط لم تعهده وسارت مُسرعة إلى غرفة ولدها محمد تسبقها فرحتها بما رأت.

ولما وصلت إلى سرير الصغير أخذت تمسح بيديها المرتعشتين على رأس محمد وتتحسَّس وجهه بحنان وهي تسأل نفسها:

هل ما رأيته الآن كان بُشرى من الله حقًا؟

أم هي أضغاث أحلام، أم لعلها أحاديث أوهام؟!

وبينما هي كذلك بين رغبتها ورهبتها إذ استيقظ صغيرها من نومه وهو يُحرك جفنيه ويفرك عينيه...

لقد شعر بشيءٍ غريبٍ لم يشعر به منذ أن فقد بصره.

بشيءٍ جعل عينيه تتألمان من ضوء الشمس!، يشعر بذلك الألم، ولكنه ألمٌ حبيبٌ إلى قلبه، وطالما أضاءَ له دربه، إنه ألم النُّورِ إذا دخل العينين، والذي لم يشعر به محمد منذ زمن.

نعم لقد عرف النور طريقه إلى عيني محمد، فهما الآن تبصران.

لقد رأى محمد ضوءَ النَّهار، ورأى معه وجه أمه المشرق بالإيمان.

- أمي أنا أراك، وأرى حجرتي ولعبي.

الأم: الحمد لله يا محمد الذي ردَّ عليكَ بصرك، فهو سامع الشكوى وكاشف البلوى، وهو أرحم الراحمين.

- الحمد لله يا أمي، فهو على كل شيءٍ قدير.

لقد كاد قلب الأم يطير من فرحتها بشفاء صغيرها، ومرَّت عليها أيامٌ هنيئة شعرت معها أنها لازالت في حلمها الجميل، ولم تستيقظ منه بعد!

أما محمدٌ فكان له شأنٌ آخر؛ فهو كثير الصمت، دائم التفكر والتأمل.

الأم: مالي أراك هكذا يا ولدي هادئًا متأملًا؟.

محمد: حدث لي شيءٌ عجيب يا أمي، منذ أن ردَّ الله عليَّ بصري.

الأم في لهفة: وما هو يا بني؟

محمد: أشعر أنني أحفظ كل ما أسمعه، وأستوعب كل ما أبصره.

الأم: تحفظ كل ما تسمعه يا محمد!! كله كله؟!

- نعم يا أمي، أحفظه كله، ولا أنسى منه شيئًا أبدًا.

فأنا أحفظ كل كلمة تلامس أذني، فكل ما يقوله أصحابي وجيراني أحفظه، حتى أنني إذا مشيت في السوق حفظت ما يقوله البائعون والمشترون، وربما سددت أذنيّ حتى لا يُسجل عقلي ما لا نفع فيه من الكلام.

فإن ما أسمعه ولكأنه يُحفر في ذاكرتي بإزميلٍ من حديد، في صفحة حجرٍ صلدٍ لا أستطيع محوه، لكأن ما أراه مشاهدًا منقوشةً على معدن صلبٍ لا يمكنني حذف جزءٍ من تفاصيله.

الأم: سبحان الله! ما أجزل نعمه وما أعظم كرمه!!

إنها نِعم الله يا بُني التي يهبها لمن يشاء من عباده، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وهذا من فضل الله عليك وعلينا يا محمد.

كان هذا هو محمد بن إسماعيل البخاري أعظم من أنجبته خُراسان، والمولود ١٩٤هـ، في بُخارى.

## النابغة

هذه بُخارَى ترفلُ في نعمة الإسلام وتجرُّ أذيال عزِّها بالتوحيد، ونحن في بداية القرن الثالث من هجرة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فقد ذخرت بُخارى بمراكز النور وانتشرت فيها كتاتيب حفظ القرآن الكريم، وهي تفخر على غيرها من البلدان بكثرة علمائها وحُفَّاظها.

وحيث كان العلم في الدين والفقه فيه هو غاية التكريم، فقد أرسلت أمُّ البخاري ولدها الأثير إلى الشيوخ ليحفظ القرآن فانطلق الغلام الصغير كطائر بين الأشجار يقطف من ثمارها، وفراشة بين الأزهار يرتشف من رحيقها.

وحيث كانت أدوات العلم ذهنًا صافيًا، وقلبًا واعيًا فقد بلغه البخاري إلى أقصاه ووصل في إتقانه إلى منتهاه فكان يحفظ ما يسمعه من مرة واحدة.

وكان مع البخاري في كُتَّابه رفيقان وإن كانا في الحفظ يجتمعان فهما في الأخلاق مفترقان.

أما أحدهما فَضِل وَدُودٌ، وأما الآخر فَضَلٌ ودُود.

أما الأول فهو محمد بن أبي حاتم الورَّاق فهو للبخاري صديقه الصَدُوق.

وأما الآخر فهو ابن أبي حفص الزَّبرقان وهو للبخاري حاسد وعليه حاقد.

وكان من حقد الزبرقان الصغير أنه كان يشي به عند الشيخ ويتهمه.

يا شيخ!! إن محمد بن اسماعيل لا يكتب فروضه، وأنه يدِّعي الحفظ سجية من الذاكرة لمرَّة واحدة بعد سماعه، ونحن نظنه من الكاذبين.. وما يقول ذلك إلا افتضارًا.

فقرر الشيخ أن يتحقق بنفسه من ذلك.

الشيخ أحمد بن حفص البخاري وهو يتفقد الأطفال: مَنْ منكم حفظ حزبه البارحة في البيت كما كلفتكم بالأمس؟.

فأجابوه جميعًا إلا البخاري!

الشيخ: مالك لم تحفظ مثل أقرانك في البيت؟

البخاري: حفظت الحزب يا شيخي، ولكن ليس في البيت إنما حفظته هنا عندما سمعتك تقرأه.

الشيخ: وأنت تحفظ القرآن بمجرد سماعه يا محمد؟

البخاري: نعم يا شيخ.

الشيخ: إذًا سأقرأ عليك جزأً كاملًا وأسمعه لي الآن.

وبدأ الشيخ في القراءة حتى أنهى الجزء كاملًا.

الآن ابدأ يا محمد بقراءة ما سمعت.

البخاري يبدأ بالقراءة حتى أنهى الجزء حفظًا كما سمعه. كل ذلك والشيخ منصتٌ ومعه تلاميذه مندهشون ثم قال الشيخ متعجبًا:

هذا الغلام ليِّسٌ وأرجو أن يكون له صيتٌ وذكر.

كان ذلك هو حال البخاري وهو في الثامنة من عمره فما أتمها حتى حفظ القرآن كاملًا

ثم بدأ ينشغل بحلقات التدريس، وما إن لامست أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذنيه حتى دخلت إلى قلبه بغير استئذان وما جلس في حلقة منها إلا حلَّق معها في السماء.

البخاري لصديقه الورَّاق:

لقد أُلهمت حب الحديث وحفظه وإذا جلست لسماعه ألكاد أطيرُ فرحًا، وأُصبرُ طربًا.

الورَّاق: إذًا فلنذهب معًا إلى حلقة العلامة الداخلي كبير مُحدِّثي بخارى في المسجد الكبير.

البخاري: نِعم الرأي يا ورَّاق.

وحضر البخاري للشيخ الداخلي، وأبهره تحديثه وغزارة علمه وطلاقة لسانه فأخذ يحضر حلقته في كل يوم، وكان الشيخ يحدث في كل يومٍ بمائة حديث، وقضى على ذلك هو شهرًا.

والبخاري في كل يوم يستمع إلى ذلك كله فأخذ يحصي الأحاديث سمعًا، ووعيًا، ويثبت منها حفظًا وفهمًا ثم يعود إلى أمه في المساء.

وفي ذات يوم سألته أمه: أين كنت يا محمد؟

البخاري: كنت في حلقة الحديث للشيخ الداخلي.

الأم: وبما حدَّثكم الشيخ اليوم؟.

البخاري وقد أدرك رغبة الأم في اختبار ذاكرته والاطمئنان على موهبته؛ فأخذ يروي أحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسندها ومتنها، ويذكرها بروايتها ودرايتها، حديثًا تلو حديثٍ، وكأنه يردد خلف الرواة، أو

كأنه يقرأ من كتاب مفتوح أمامه، والأم تنظر إليه وهو يسرد الحديث سردًا كأنه يتنفسه.

الأم مقاطعة له وقد أخذتها الفرحة بنابغتها، وهذا النور الذي أضاء في بيتها:

هل حدثكم الشيخ الداخلي بكل هذا يا محمد في يوم واحد؟!!

البخاري: لا يا أمي إنما هذا حديث الشيخ في شهر منذ أن جلست في حلقته.

الأم: وتحفظ أحاديث الشهر كاملة يا محمد؟! من غير كتابة ولا تدوين؟!

البخاري: نعم يا أمي، فإني أشعر بأنني وقد أُلهِمْت حب الحديث وحفظه وإذا جلست لسماعه أكاد أطيرُ فرحًا، وأُصبرُ طريًا.

## الصغير يفوق الكبار

جلس طلاب الحديث بل وعلمائه أيضًا في حلقة الشيخ الداخلي وقد تحلَّقوا في سكون كأن على رؤوسهم الطير وقد عم الهدوء المكان فلا تكاد تسمع إلا همسًا إلا صوت الشيخ وهو يبدأ حلقته بالتحديث ويذكر الأحاديث ورواتها، والسلاسل وعَنْعَنَاتِها ولم يزل يحدث ويملي، والطلاب يكتبون بشغف ونهم.

حتى قال الشيخ: روى سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم.

وإذ بصوت ينادي: يا شيخ!؟

فالتفت الشيخ إلى الصوت مغضبًا ظنًا منه أن سائلًا يسأل أو جاهلًا يستفسر.

وإذا به يصحح له ويخبره بأن خطأً قد وقع «يا شيخ إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم».

الشيخ وقد ازداد غضبه - مَنْ صاحب هذا الصوت؟

البخاري ولم يكد يظهر بين طلاب العلم لصغره: ها أنا ذا يا شيخ.

وإذا بالشيخ يرى حَدَثًا صغيرًا وجسدًا نحيلًا لم يتجاوز الحادية عشرة.

فازدادت دهشته بعدما رآه.

- مَنْ أنت؟

أنا محمد بن إسماعيل البخاري

الداخلي: وكيف عرفت أن ما رويته خطأً؟

البخاري في هدوء الواثق وثبات المستيقن: ارجع إلى الأصل من كتبك، التي دونت فيها الحديث إن كانت عندك.

كل هذا والعلماء يسمعون، وطلبة العلم ينظرون!

الداخليُّ: وقد استفزته صفات غلام صغير يصوِّب له، واستنفرته رغبة التحقق من الحقيقة.

الشيخ الداخلي: مكانك لا تبرحه حتى آتيك.

ثم قام ودخل إلى كتبه وراجع الأصل فإذا بالرواية كما ذكرها البخاري.

الداخليُّ: لقد تحققت من كتبي فوجدتني المخطئ وأنت المصيب.

ولكن هل تحفظ كل ما رويته من كتبي في مجلسي يا بني؟

البخاري: نعم يا شيخي وكتب غيرك أيضًا.

الداخلي وقد أدرك أن هاهنا قد ظهر عَلَمٌ من الأعلام، والطالب الذي سوف يتفوق على أساتذته.

الداخلي: لا تجلسن بعد ذلك يا بخاري إلا بجواري، وسوف يأتي يومٌ ستجلس فيه مجلسي هذا وإن كنت في سنك هذا تحفظ ما لا يحفظه كبار المحدثين، وإن كنت قد حفظت الأحاديث الصحاح، وعرفت الأسانيد وفرَّقت فيه بين السقيم والمستقيم.

فإني أرى عليك علامات النبوغ وإني أبشرك بما بشَّر به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أمثالك.

قال: «ما أوتي نبيٌّ النبوة إلا وهو شابًا، وما أوتي عالمٌ العلم إلا وهو شابًا».

وإني لأراك من هؤلاء فاحفظ نعم الله عليك فإن حفظ النعم بشكرها.

وابدأ بشيوخ بخارى ونيسابور قبل غيرهم.

لقد حفظ البخاريُّ نصيحة شيخه الغالية ورعاها وظلَّ مُرتحلًا إلى ما حول بُخارى من البلدان أمثال مرو، وطشقند، وسمرقند، ونيسابور.. وغيرها وجلس إلى

شيوخها، وسمع من علمائها وحفظ عن محدثيها حتى جمع علومهم جميعًا إلى علمه وحَفظ أحاديثهم..

وهو في كل ذلك كما عرفهم عرفوه، ونفعهم أكثر مما نفعوه فكان ينقل إليهم ما ليس عندهم وينبههم على نسيانهم ويصحح لهم أخطائهم.

وظل هكذا وفي أربع سنوات كان البخاري هو الأشهر بين أقرانه ولم يبلغ البخاري الخامسة عشرة حتى حفظ أكثر من سبعين ألف حديث.

## بيكند

في مجلس الإملاء لأحاديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبينما الطلاب يكتبون وكلهم حرص على تدوين الحديث، ويخافون أن يفوتهم منه كلمةٌ أو حرفٌ إذا بأحدهم ينكسر قلمه وهو يكتب فنادى: مَن يعطيني قلمًا الآن سأعطيه دينارًا من الذهب أي بوزن القلم ذهبًا، فألقى إليه الطلاب بأقلامهم فاشتراها منهم كلَّها بالذهب!

وكان ذلك محمد بن سلام البيكندي فهو زين مدينة بيكند وأشهر علمائها ومحدثيها عاصر الإمام مالك، وصاحب الإمام أحمد بن حنبل وروى عنهما.

وهذا الذي ارتحل إليه البخاري في آخر رحلاته قبل أن يغادر نيسابور وبلاد فارس وجلس البيكندي كعادته يحدث الناس إذا به يلمح وجهًا وضيئًا يشع منه الصلاح والضياء، ويكسوه الهدوء والحياء.

البيكندي: إن هذا الوجه ليذكرني بوجه إمام دار الهجرة مالك بن أنس فسأله، من الشاب؟

- أنا محمد بن إسماعيل البخاري.

البيكندي: ومن أي البلاد أنت؟

- من بخارى.

البيكندي: وما الذي أتى بك من بخارى؟

- جئت أطلب العلم وأسمع الحديث.

البيكندي: وهل سمعت من شيوخ بلدك قبل مجيئك إلى بيكند؟

- نعم لقد ذهبت إلى مرو؛ وأخذت من علي بن

حسين ابن شفيق، وعبدان...، وأخذت في بَلخ من مكي بن إبراهيم ويحيى بن بشر، وفي هراة أخذت من أحمد بن أبي الوليد الحنفي.. وظل يعدد له البلاد بأسمائها وعلمائها..

البيكندي: وهل حصلت علومهم؟ وجمعت أحاديثهم؟

البخاري: نعم جمعتها وحفظتها.

البكندي: وهل أحصيت عددها؟

- هي سبعين ألف حديث بل يزيدون.

البيكندي: إذًا فاجلس يا بخاري.

وظل محمد بن سلام البيكندي يسأل البخاري ويختبره في حفظه للحديث، ومعرفته بالرجال، وعلمه بالأسانيد، والصحيح والسقيم..

فما سأله عن شيءٍ إلا أجابه البخاري بما يريده ويزيده، وأذن البيكندي لمن في المجلس أن يسألوا

البخاري فما سألوه في شيء إلا وجدوه قد أحاط به.. وهم في ذهول مما يرون ويسمعون، فمنهم المتعجِّب، ومنهم المسبح، ومنهم من يُكبِّر.

فأيقن البيكندي أنه أمام أعجوبة عصره وإمام دهره كل هذا والبخاري لم تنبت لحيته بعد، ثم قام البخاري فانصرف.

وبينما هم كذلك إذ دخل إلى المجلس سليم بن مجاهد.

البيكندي: لو جئت قبل لرأيت صبيًا يحفظ سبعين ألف حديث.

فخرج سليم بن مجاهد في أثره يسأل عنه لعله يراه حتى وجده والناس حوله.

سُليم: أنت الذي تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث.

البخاري: نعم وأكثر منه.

سليم: وما الذي أكثر منه؟

البخاري: لا آتيك بحديث من الصحابة أو التابعين إلا عرفت مولد أكثر رواته، ووفاتهم، ومساكنهم، وليس حديث من ذلك كله إلا وأعلم أصله من كتاب الله وسُنة رسوله.

وما هي إلا أيام وذاع صيتُ البخاري وعلا نجمه على من حوله حتى طلب منه شيوخه تصحيح كتبهم على حفظه.

## مهبط الوحي

لازالت خزائن الأقدار يُخرج الله كنوزها للبخاري وبعثت إليه هداياه، وها هي شجرة العطاء الربَّاني تختصه بثمارٍ من كل لون وطعم.

فلقد رأى البخاريُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا بوجهه القمري الوضيئ، إذ بذبابٍ يعمد لإيذائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والبخاري واقف بين يديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذب عنه الذباب، ويدفع عنه الأذى.

فاستيقظ البخاري على بشراه برؤية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن رآه في رؤيته فكأنما رآه حقًا.

فأُولت له أنه سيدفع الكذب عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويصفِّي أحاديثه «هكذا أخبره شيوخه».

عاد الشاب صاحب الستة عشرة ربيع إلى بيته فأخبر أمه بما رآه وكذلك تأويله.

الأم وقد أصبح البخاري مصدرًا لخير حياتها ومصباحًا للنور في بيتها، وسلَّة النعم التي تُلقى في حجرها وقد استرجعت ما حدث لها معه من قبل، وتذكرت عناية الله به و بها.

فسألته: صِف لي ما أنت فيه يا محمد؟!!

البخاري وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وامتلأ صدره بتنهدات يعرفها أهل الخشوع...

واشوقاه رسول الله!!

لطالما سمعت حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ورويته ولكن بعدما رأيت رؤياي هذه فكأن شيئًا دخل إلى قلبي يحدثني أن الحديث أصبح قدري، وحفظ السُّنة أضحى مهمة حياتي، وكأن الله لم يخلقني إلا للحديث وعلومه وتعليمه.

وَلَكَمْ أخذني الحنين إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومدينته طيبة الطيبة.

فبادرته الأم في هدوء وسكينة هل تحب زيارة الحرمين يا محمد؟!

البخاري: إنهما مهوى فؤادي، فلطالما سمعت عن مكة وما رأيت كعبتها، وأحببت المدينة وما شاهدت روضتها.

ولقد استخفَّ بي الشوق لأرى مهبط الوحي ومكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فألتمس من ضيائها، وأقتبس من نور علومها، فإن في مكة والمدينة آثار الأنبياء، وحِكَم الخلفاء، ومجالس العلماء.

هناك كانت حياة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه ولازالت أماكنهم تتحدث عنهم وتحمل آثارهم وتروي أخبارهم.

الأم: وما الذي تُفكر فيه إن ذهبت إلى هناك؟

البخاري: أن أرى ما رأوا وأروي ما رووا بل أين ماتوا ودفنوا، ومن الذي التقى بهم وعاصرهم وروى عنهم..

الأم: إذًا اعزم أمتعتك يا محمد فلسوف نحج هذا العام نحن الثلاثة أنا وأنت وأخوك أحمد ولم يبق على الحج إلا أشهر قليلة هي مدة السفر إلى مكة إن شاء الله.

البخاري: وقد طار فرحًا جزاكِ الله خيرًا يا أمي فوجهك الذي يأتي عليَّ بالخير دائمًا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

شدَّ الثلاثة رحالهم في قافلة الحج، وقد ولَّوا وجوههم شطر المسجد الحرام.

ومضت فرحة البخاري تسبقه ومعها مشاريعه التي أعدَّها وهو ينوي تنفيذها في أرض الحجاز.

سار الركب، وسارت معه أفكار البخاري وهي تحدثه: ها هي بلاد العرب العامرة قد اقتربت يا محمد، تلك الديار

التي اختار الله منها أنبيائه، وأنزل فيها كتبه وسطع منها نور الهدى إلى العالم كله، حتى أهل بخارى ونيسابور قد أسلموا ونجَّاهم الله من الظلمات إلى النور بقائد عربي من تلاميذ الصحابة الكرام، وقد خرجوا للعالم فحرَّروا البلاد وهدوا العباد.

حتى أنت يا بخاري وأبوك وقومك من الذين نجاهم الله وهداهم بجهد هؤلاء.

لوددت أن أكون جزءً من هذا التاريخ العظيم أو لبنة في هذا الصرح المتين، ولابد لجهدهم أن يُحفظ، ولتاريخهم أن يُنشر، ولجميل فِعالهم أن تُشكر.

ولقد نزلت قافلة الحج مكة عاصمة الإسلام وأدَّوا حجهم وأنهوا مناسكهم، وقفلوا عائدين إلى بُخارَى إلا البخاري، فقد شعر أن انتماءه قد أصبح لهذا المكان، وولائه كاملًا أصبح لهذا الدين، وأنه جزءٌ من أحداثه وصفحة من تاريخه وسطر في قصته.

البخاري: استودعك الله يا أمي فإني أرجو البقاء ها هنا لأتعلم الإسلام على أرضه وبين أهله فكوني عني راضية ولي داعية.

الأم: لازال قلبي يحدثني أن مثل هذا سيحدث.

وصوت جميل يهمس في أعماقي: لا تخافي عليه ولا تحزني.

علمتُ ذلك منذ عشر سنين وها أنا الآن أراه يتحقق، - وقد نزلت من عينيها دموعٌ حارة -

حفظك الله يا محمد وجمعني بك في الجنة.

وعادت أم البخاري وأخوه وتركاه في مهبط الوحي

# مكة

من ها هنا خرج نور الإسلام، وانطلق ضياء وحيه ليضيئ الدنيا.

ها هنا ودَّع البخاري أهله، وترك ماله وترك أرضه ليربط مصيره بمصير الإسلام فلبس ثوب هذا الدين واصطبغ بصبغته فأصبح علَمًا من أعلامه الدالة عليه.

سار البخاري على أرض الحجاز ولأنه وطئ بأخمصيه الثريا مبهورًا بتلك الحضارة، حضارة الإسلام التي ظللت البشريةَ بشجرتها الطيبةُ واحتضنتهم بأغصانها الباسقة وأوراقها الوارفة والتي هو نفسه إحدى ثمارها النضيجة البهيجة.

فانطلق يطوف بشيوخ مكة الذين ليس على الأرض مثلهم ويسمع لحديثها - حتى جلس إلى أعلمهم وأفضلهم، سليمان بن حرب، هذا الذي كان يحضر مجلسه أربعون ألف رجل وكان قوي الذاكرة يروي عشرة آلاف حديث دون أن يمسك الكتاب.

فلما رأى البخاري وحفظه وقوة ذاكرته، كان يقول للبخاري: بيِّن لنا غلط شعبة، وكان سليمان يحدِّث والطلبة يكتبون والبخاري يسمع ولا يكتب فقالوا: ما له لا يكتب؟

فقال سليمان بن حرب: يرجع البخاري إلى بخارى ويكتب هناك من حفظه ما يسمع هنا،

يقول هذا ثقةً في حفظ البخاري واعترافًا بموهبته

ولكن البخاري لم يكن يهتم فقط بسماع الحديث وإنما أراد أن يعرف الإسلام في دياره كما تعلمه من آثاره، ويعرف الأشخاص والأحداث كما كانت تحدث على أرضها في وقتها بأدق تفاصيلها.

فأخذ يطوف بمكة، ولسنتين يتأمل أركانها ويجوب أطرافها، ويراجع أحداثها - وأخذ يدون كل ذلك في كتاب أسماه «التاريخ».

ظل البخاري يسجِّل هذه الأحداث بهذه الأشخاص وهو يعلم أنه يُدوِّن ذاكرة الإسلام، ويسطر تاريخه، ويرتِّب أرشيفه، ويعيد سجل أسماء أبطاله الذين حملوا لواءه، ويُطلق شريط أحداثه لينقل منها نُسَخًا طبق الأصل من مكانها وزمانها لتصبح صورًا من واقع الإسلام المعيش منذ قرنين من الزمان أو يزيد ليراها مَنْ بعده من الأجيال المسلمة ليعرفوا تاريخهم، وليعتزُّوا بدينهم وليتأملوا حضارتهم.

حفظ البخاري تاريخ الإسلام للمسلمين وأهداه إليهم، فلو راموا عِزًّا ونصرًا فها هي السبيل واضحة، والطرق مُمَهدة، هكذا سجَّل البخاري للمسلمين عظمائهم في التاريخ، فسَجَّل التاريخ اسمه في الخالدين.

## في الروضة

وبعد سنتين قضاهما البخاري في مهوى الأفئدة فالآن طار فؤاده إلى طيبة الطيبة مدينة الحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الآن يذهب إلى مأوى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرى الروضة المباركة، والمنبر عن يمينها، ورسول الله في بيته عن يسارها، المدينة التي أحبها وأحب من فيها ولم يرها إلا اليوم، فسوف يمشي على ثراها ويتظلل ديارها ويرى آثارها، لكن الأعظم قدرًا أنه سيكون بجوار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في روضته يسمع الحديث فيها بجوار قائله وفي الأماكن التي قيلت وسُمِعت فيها وما إن نزل البخاري المدينة حتى ذهب يجمع الآثار

والأخبار عن المهاجرين المجاهدين، والأنصار الأبرار وأبنائهم وأحفادهم بأعمارهم ومكان ديارهم ومن لاقوه من التابعين

وما فعله البخاري في مكة تَنَّى به في المدينة وذهب يحصي الحديث من أهله حتى ورث الشافعي ومالك في علمهما في نفس مكانهما وظل البخاري هكذا حاله في الحجاز ست سنين حتى تضاعف علمه وذاع صيته وعَظُم حفظه وكان كلما جمع شيئًا وأراد تدوينه يأرز إلى الروضة الشريفة بجوار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيكتب العلم بجوار صاحبه ومعلمه الأول.

كان البخاري يذهب إلى مسجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسبقه شوقه ويحدو به حنينه إلى بيت آخر نبي وأعظم رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كان يجلس بجوار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في روضته يكتب الأخبار، ويُدوِّن الآثار، ويكتب الحديث.

جلس البخاري في نفس المكان الذي كان يجلس فيه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ينتظر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لسماع حديثه مستحضرًا ما كان يفعله أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في نفس المكان ولنفس السبب ويرجو نفس الثمرة.

ثم ينقل البخاري هذه الصورة عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ معاناته في طلب العلم و هو يقول: لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَإِنِّي لَأَخِرُّ فِيمَا بَيْنَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَيَجِيءُ الجَائِي فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلَى عُنُقِي، وَيُرَى أَنِّي مَجْنُونٌ، وَمَا بِي مِنْ جُنُونٍ مَا بِي إِلَّا الجُوعُ»

فجمع أيامهم بأفراحهم وأتراحهم وأظهر آثارهم ولم يترك والدًا ولا ولدًا إلا دون سيرته، وكتب مسيرته.

حتى ألف كتابه التاريخ الكبير والصغير.

وها هو إسحاق بن راهويه شيخ الجرح والتعديل، وعنده عِلْم الرجال والأنساب يسمع عن هذا الكتاب

الذي ألفه شابٌ تخطى عامه العشرين بأشهر معدودات.

إسحاق بن راهويه: أنت محمد بن إسماعيل البخاري؟

- نعم.

- لقد سمعت أنك دونت فيه كل الصحابة ومَنْ لاقاهم وسمع منهم.

- لا يا شيخي بل دونت أيضًا أعمارهم وديارهم وآثارهم، ومَنْ لاقاهم ولاقوه، وأين عاشوا، وإلى أين هاجروا، وأين ماتوا ودفنوا فعلت ذلك مع كل والد وولدٍ فيهم وتابعيهم ممن كان له صلة بحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

إسحاق بن راهويه: وهل هذا يكفي في كتاب واحد.

- لا يا شيخي لقد ألفته في ثلاث كتب الكبير، والأوسط، والصغير.

- لو كان ما تقوله حقًا تكون قد كفيت من بعدك

السؤال عن الرجال وتكون قد حفظت حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من الدسائس.

- فأين كتابك هذا.

- ها هو ذا الكتاب.

نظر إسحاق بن راهويه إلى الكتاب وأخذ يقلب صفحاته، وكلما وقعت عينه على اسم صحابي أو ترجمة تابعي يقول:

- لم يقوَ علماء الأمة في قرنين على ما أعطاك اللهُ في بضع سنين والله يرزق من يشاء بغير حساب.

فما أسميته؟

- «التاريخ».

- إنك بحقٍ قد صنعت التاريخ.

دخل إسحاق بن راهويه على الأمير عبد الله بن طاهر أمير الري، وعنده العلماء وحوله الفقهاء يوم كان

الأمراء زينة مجالسهم والعلوم والآداب محل فخرهم.

الأمير مُرَحِّبًا ومُتعجبًا عن سبب تلك الزيارة الفاجئة لشيخ الجرح والتعديل وكبير علم الرجال.

- مرحبًا بك أيها الشيخ الجليل وما هذا الذي تحمله على ظهرك؟

- أيها الأمير، ألا أريك سحرًا؟

قال الأمير ضاحكًا ومتى أصبح السحر حلالًا يا أبا يعقوب؟!

إسحاق بن راهويه: إنه سحر العلم، وعِرافة المعرفة، إنه تاريخ الأمة وسيرة رجالها.

لقد أخذت الأمير عبد الله بن طاهر ومن حوله من العلماء الكبار دهشة وعلت وجوههم علامات الترقب.

الأمير: شوقتنا إليه فأتحفنا به.

وبدأت الأصوات تنبعث من جنبات المجلس فصوت يقول: أرنا هذا الكتاب، وآخر ينادي أحقٌ ما تقول؟ ومَنْ

يطيق ذلك، وثالث متهيبًا: وهمهمات هنا وهمسات هناك.

فلما رأى إسحاق بن راهويه أنه قد أثار فضولهم بما يكفي وضلب لُبَّهم نحو التاريخ مدَّ يده في حقيبته وأخرج لهم الكتاب من جعبته.

- ها هو التاريخ بين أيديكم.

أمسك العلماء الحاضرون الكتاب بشغف، وهم يتزاحمون على قراءة فصوله والاطلاع عليه.

ابن عقدة معلقًا على «التاريخ» وهو الفقيه القاضي

- لو أن رجلاً كتب ثلاثين ألف حديث فلا غنى له عن كتاب التاريخ للبخاري.

أما تاج الدين السبكي فقد قال بعدما رآه:

كتاب محمد بن إسماعيل في التاريخ كتاب لم يُسبق إليه، وإنه قد أصل الأصول.

ولما خرج كتاب «التاريخ» إلى النور أصبح الناس يترقبون - عالمُهم ومتعلِّمهم - ينتظرون سيرة وتاريخ مَنْ حولهم وكان يكفي للرجل افتخارًا أن يذكره البخاري في كتابه وتتبين أهميته في نظر المؤرخين، ومن ذكر فيه بغير جرح فقد فاز.

ثم أصبح كتاب التاريخ هو الأساس الذي سَيُبْنَى عليها أعظم كتاب وأصحه بعد كتاب الله سبحانه فيما بعد.

وبعد ست سنين مكث فيها البخاري في أرض الحجاز وطاف بها شرقًا وغربًا من مكة إلى المدينة، ومن جدة إلى الطائف.

# الرِّحـــالـة

لقد أدرك البخاري أن الصحابة والتابعين ملئوا الأرض بعلمهم ونشروا الإسلام في ربوعها وقد سافروا وهاجروا إلى بلدان غير بلدانهم وتنقلوا من مكان إلى آخر، وفي كل ناحية كانوا يروون الحديث ويسمعه الناس منهم.

فقد غادر بلال بن رباح إلى الشام وسافر عبد الله ابن مسعود إلى الكوفة وذهب معاذ بن جبل وأبو موسى إلى اليمن ودخل عمرو بن العاص مصر وكثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ معه

فقرر البخاري أن يسير مسير كل صحابي، ويتبع كل تابعي حتى لو دخل جحر ضب لدخله خلفه ليحدد صلته بحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فسطعت له الحقائق، وظهرت له الدقائق وخرجت له الخفايا من مغاراتها، ولهوفها، وانكشفت له الأسرار من جحورها.

فدانت له جهات الأرض الأربعة، اعترافًا بفضله وإذعانًا لرفيع قدره في علمه ودينه وورعه وحفظه لسُنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

## البصرة

ثم كانت رحلته إلى البصرة

الورَّاق: كم مرة سافرت إلى البصرة؟

- أربع مرات.

- وكم كتبت فيها من الحديث.

- ما تركتُ فيها حديثًا إلا كتبته.

- وكم سافرت إلى الكوفة؟

- زيارتي للكوفة وبغداد لا أحصيها كثرةً.

- وكم من العلماء كتبت عنهم.

- لقد كتبت عن ألف شيخ من العلماء وزيادة وليس عندي حديث إلا أذكر إسناده.

وأما المحطة التالية للبخاري فكانت البصرة تلك الديار العامرة بالعلماء والحكماء فقد كان فيها الحسن البصري الذي تربى في بيت النبوة عند أم المؤمنين أم سلمة وكان كلامه كأنه يشابه كلام الأنبياء والصحابة وفيها المفسِّر الفذ محمد بن سيرين وكانت البصرة مركزًا هامًا للعلوم والحديث أخصها لما نزل البخاري البصرة ارتجت وخرج إليه الألوف من أهلها.

فنادى منادٍ يا أهل العلم لقد قدم محمد بن إسماعيل البخاري.

وسألوه بأن يعقد مجلسًا للإملاء فأجابهم إلى مجلس حضر فيه الآلاف من المحدِّثين والحفَّاظ والفقهاء.

البخاري: يا أهل البصرة سوف أحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدونها وهي ليست عندكم.

فأرمَّ القوم تعجبًا مما قال، فقالوا:

- إن كنت قد ألممت بما ليس عندنا فقد أحطت بما عندنا فأصبحت تعرف عن أحاديثنا ورجالنا ما لا نعرفه فهات ما عندك.

البخاري: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًا جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرء مع من أحب».

هذا عندكم عن غير منصور، وإنما رويته لكم الآن عن منصور وظل يقرأ عليهم ما عندهم ويخبرهم بما ليس عندهم وكان هذا المجلس إملاءه لعلماء البصرة.

- وماذا عن رحلتك إلى بغداد؟

- هذا في لقاء الغد إن شاء الله.

# بغـداد

إنها دار الخلافة وعاصمة العلم التي اتخذها الخلفاء العباسيون عاصمة لحكمهم وكانوا يشملون العلماء وقتها برعايتهم.

وكان فيها أكابر العلماء على الأرض إمام أهل السُّنة أحمد بن حنبل، ورفيق دربه يحي بن معين، وإسحاق بن راهويه.. وغيرهم.

فلما دخل البخاري بغداد اهتزت لقدومه المدينة وخرج إليه فلذات أكبادها وكانوا قد أعدُّوا له استقبالًا قبل دخوله أسوارها وموكبًا يصحبه من الأعيان والفرسان وجعلوا ينثرون عليه الدنانير والتَّف حوله الناس رجالًا وركبانًا وكانت أعدادهم بالآلاف.

ولكنها بغداد وهي ليست كغيرها ودخولها ليس بالهين حتى على البخاري.

فقد اجتمع كل هؤلاء الحفاظ والمحدثين على كثرتهم ليعلموا حقيقة البخاري ويقفوا على خبره فدبَّروا له اختبارًا.

فقد استضافوا البخاري في مجلس حضره خاصة الناس وعامتهم ثم استدعوا عشرة من العلماء مع كل منهم عشرة أحاديث وقد قلَّبوا متونها، وبدلوا أسانيدها.

فلما دخلوا على البخاري تقدم أولهم وقرأ عليه أحاديثه العشرة وكلما روى حديثًا يقول البخاري: لا أعرفه.

ثم الثاني فالثالث.. وهكذا مع العشرة رجال حتى أتموا المائة حديث.

والناس كلما سمعوا البخاري يقول: لا أعرفه يشكون في حفظه، ويرتابون في ذاكرته ومنزلة علمه أما العلماء فقالوا: فهم الرجل.

فقالوا له: إذا كنت لا تعرف هذه الأحاديث فما الذي تعرفه؟

البخاري: أما الحديث الأول فإنك قلت كذا وكذا ولكن صوابه كذا، وقرأه عليه بالإسناد والمتن الصحيحين.... وهكذا حتى انتهى من المائة حديث؛ فغمر الناسَ موجةٌ من الانبهار وأذعنوا أنه كان يحفظ المتون الصحيحة إنما العجب من حفظه لأخطاء الرواة في المائة حديث لكل منهم.

# بُخارى تتهيأ للبخاري

أما بُخارَى فقد قالت مَن شَهِدَها يوم رجوع البخاري إليها، وهو مسلم بن الحجاج فقال:

ولما رجع إلى بُخارَى عائدًا من رحلاته العلمية وقد ذاع صيته بين العلماء في العالم نصبوا له القباب على بعد أميال واستقبله أهل بُخارَى حتى لم يبق منهم أحدٌ في داره ونشروا عليه الدنانير والزينة.

ثم قال مسلم:

أما نيسابور فلما قدم البخاري إليها، ما رأيت واليًا، ولا عالمًا فَعَل به أهل نيسابور ما فعلوه به، وكان في الموكب أربعة آلاف خيالة وأما ركاب البغال والحمير والشاة فلا يسعهم الحصر والعد.

## طبيب العلل

إن الحديث كالجسد في صحته وعلته، وإن الحديث ليحتاج في العلل إلى طبيب حاذق وناقد بصير

جلس الإمام الغرياني شيخ زمانه في مجلس يعلمهم طب العلل

فقال: حدثنا سفيان عن أبي عروة عن أبي الخطاب عن أبي حمزة...

فنظر الجالسون إلى بعضهم ولم يعرف واحدٌ منهم الرواة فوق سفيان لأنهم ذُكِر بكتابهم

الغرياني: ما تقول يا أبا عبد الله؟

- أبو عروة هو محمد بن راشد، وأبوه الخطاب هو قتادة بن دعامة، وأبو حمزة هو أنس بن مالك

كان الثوري نعوذًا لذلك يُكَنِّي المشهورين

فقال الترمذي وهو تلميذ نجيب للبخاري وسيكون بعد ذلك من أعلام الحديث :

لم أر أعْلَمَ بالعلل والأسانيد من محمد بن إسماعيل البخاري

فأسرع إليه مسلم بن الحجاج وهو صاحب الصحيح الثاني

قال: حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج عن موسى عن عقبة عن سهيل بن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كفارة المجلس إذا قام العبد أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

فقال له مسلم: في الدنيا أحسن من هذا الحديث؟

البخاري: إلا أن به علة

فارتعد مسلم ثم قال: لا إله إلا الله!! أخبرني بعلته

فرد البخاري بأدبه المعهود، وورعه المشهود.

- يا مسلم: استر ما ستر الله هذا حديث جليل رواه الناس .

فازداد مسلم في حيرته وألحَّ عليه وقبل رأيه وكاد يبكي

البخاري: اكتب إن كان ولابد، ثم روى له الحديث نفسه ولكن بسنده السالم من العلة.

ففرح مسلم وانفرجت أساريره فقام فقبل بين عينيه - دعني أقبِّل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيد المحدِّثين، وطبيب الحديث في أمراضه.

لا يبغضك إلا حاسد، وأشهد أنه ليس في الدنيا مثلك

وفي ذلك ترك البخاري روايات كثيرة لما تبين له من علل قد خفت على غيره حتى ليم في ذلك.

فسأله يحيى بن سعيد القطان الحديث الكبير في تركه لكثير من الحديث تورُّعًا:

- يا أبا عبد الله كم رويت من الحديث الصحيح؟

البخاري: مائة ألف حديث، وما تركت من الصحيح أكثر.

القطان: أليس هذا بكثير؟

البخاري: لقد تركت عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر، وتركت مثلها أو أكثر منها لغيره لي فيه نظر.

القطان مذكرًا، ومحذِّرًا - أما تخشى ممن تركت حديثهم أن يكونوا خصمائك يوم القيامة.

البخاري: لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إليَّ من أن يكون خصمي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: لم حدَّثت عني حديثًا ترى أنه كذبًا.

ثم أتى صوت يداعب الورَّاق.

يا ورَّاق ألا تحدثنا عن أطرف ما مررت به مع البخاري!

الورَّاق وقد انبسط وجهه وعلت نسماته بشاشة ثم قال:

ذات مرة ذهب الإمام البخاري وسمع بأن رجلًا عنده أحاديث لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ فرحل إليه وكانت قريته على بعد شهرٍ.

فلما وصل إلى الرجل في بيته وجده يشير إلى فرسه بشيءٍ في ثوبه!

فقال له البخاري: لماذا كنت تشير للفرس بثوبك؟

فرد عليه الرجل: كنت أشير إليه ليظن أن في الثوب طعامًا ليأتي إليَّ لأمسكه!

فمشى البخاري تاركًا الرجل عائدًا إلى بُخَارَى، وقال:

لا آخذ حديثًا من رجل يكذب على الحيوان.

تضاحك الجلوس وتعالت قهقهاتهم

يا للبخاري وحرصه على عدالة الرواة؟!!!

وما هو أشد المواقف التي مرَّ بها البخاري؟

الورَّاق: كان هذا بعدما فقد الإمام البخاري صرة الذهب في سفرنا إلى بغداد، ونزلنا من السفينة على شواطئ الشام.

البخاري: هذه الشام وفيها شيخها ومحدثها محمد ابن إياس فلنذهب نسمع منه حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فظل يسمع الحديث ويحصله، وقد تأخرت نفقاتنا حتى عضَّنا الجوع بأنيابه، وظل البخاري جائعًا، ولا يريد أن يسأل الناس شيئًا حتى رأيته يأكل حشائش الأرض من شدة الجوع وهو يحصل الحديث و يعلِّمه.

وهل ما فقده كان كثيرًا؟

نعم ألف دينار من الذهب!

وكيف فقدتم هذا المال الكثير؟

أرى أن الوقت قد اقترب من النهاية، وإن شئتم فسيكون هذا حديثنا التالي إن شاء الله..

# ذهبٌ في قاع البحر

قال محمد بن أبي حاتم الورَّاق لقد ورِث البخاري عن أبيه ثروة كبيرة، وتجارة رابحة وفيرة، وكان البخاري تاجرًا ماهرًا كما كان محدِّثًا عبقريًا بارعًا.

وذات يوم رأيته يجمع ثروته، ويصفي تجارته.

الورَّاق: مالي أراك أيها الشيخ الكريم تُنهي أعمالك، وتُحصي أموالك؟!!

البخاري: لقد عزمت على الرحلة في طلب العلم ونشر الحديث.

الورَّاق يسأل مندهشًا: أما كفاك سفرًا بالعلم بين البلدان؟!

وما شبعت من الترحال بالحديث إلى قاصٍ، ودانٍ؟!!!

البخاري: أَوَيَشْبَعْ أحدٌ من الجنة؟

لقد بشَّر النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، ثم إن لنشر حديث الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لذةً أشعر بها في قلبي، ونورًا أُبصر به دربي، وبركةً أراها في حياتي.

أما علمت يا ورَّاق أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد اختص من يبلغ حديثه بالدعاء.

الورَّاق وقد علته علامات السرور والانبهار: وما هو ذلك الدعاء؟

البخاري: دعا له في حياته بالهناء والرضاء، وفي وجهه بالنور والضياء.

فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ».

الورَّاق: ما أجمل الحديث وأهله!!

ولكن يا شيخي إلى أين وجهتك هذه المرة؟

البخاري: هذه المرة ليست لكل مرة، إنها الرحلة إلى العراق العريق، وبغداد عاصمة العلم والخلافة.

أجالس علماء البصرة، وأسمع من محدثي بغداد، ويكفي أن فيها إمام المحدثين أحمد بن حنبل، وكذلك يحيى بن معين.

الورَّاق: إذًا فلتقبلني لك مُعينًا ورفيقًا وألون لك من السَّالكين، وسألون لك الخادم الأمين.

وانطلق البخاري ومعه ابن أبي حاتم الورَّاق يجمعان كل شاردة من الأموال وواردة حتى أصبح كل ما يملكه البخاري في صرة واحدة.

الورَّاق: لقد جمعنا الأموال كلها حتى بلغت ألف دينار من الذهب.

البخاري: الحمد لله على نعمه، فلنحزم أمتعتنا ولنبدأ رحلتنا على بركة الله.

وفي اليوم التالي وقف البخاري ورَّاقه على شاطئ البحر على موعدٍ مع السَّفينة القادمة.

ها هي السفينة قد لاحت أشرعتُها من بعيد، ورويدًا رويدًا تقترب من الشَّاطئ، وتقترب معها آمال البخاري في الإرتحال.

وما إن لامست ألواح السفينة اليابسة وثبَّت البحَّارون مركبهم وشدُّوا وثاقها بالأحبال، وأصبح كل من على الشاطئ بين طالع ونازل، و بين واضع وحامل، حتى اختلط فيها القوم، وكل يبغي وجهة يرجوها فهم طرائق قددًا، فمنهم من يحمل همَّ بضاعته، ومنهم من يبحث عن ماله، ولكن البخاري كان يحمل هم الحديث في القديم والحديث، وسط هذا الزحام انطلق البخاري وصديقه واتخذا مكانيهما فوق سطح السَّفينة.

ولكن هناك مَنْ كان يراقب البخاري عن كثب، ويُتابع خطواته في ريب.

نعم إنه الشَّيطان..

إنه الشيطان الذي أقسم أن يقعد بالصراط المستقيم، فهو يرسل وكلائه إلى الصالحين، ويدفع أولياءه إلى المخلصين، ولم ينس أن يبعث واحدًا منهم إلى البخاري في السفينة؛ عساه يظفر منه بغنيمة، إن لصٌّ من ألدِّ أعداء البخاري وأكثرهم له أذى، فمنذ زمن الطفولة وهو على البخاري حاقد وله حاسد، لقد تخفَّى الزبرقان بين ركاب السفينة، وظل يراقب البخاري حتى علم أن معه صرة من ذهب بها ألف دينار.

فراح اللص يفكر، ويدبر كيف يمنع البخاري من رحلته، ويقطع عليه مسيرته.

فقال لنفسه أنتظر حتى ينام البخاري ثم آخذ منه صرته، وبذلك أُضيّع رحلته.

فحدثته نفسه بما هو أسوأ: ماذا لو جعلت البخاري في نظر النَّاس سارقًا، واشتُهر ذلك عنه مغاربًا، ومشارقًا؟

أيسمع الناس له بعد ذلك؟!

أو يثق في علمه ثقة من العلماء، أو حتى طالبي العلم المُرتاء؟!!

اللص: نعم الفكرة ولكن ما الحيلة، وكيف الوسيلة؟!

فلم يدم طويلًا حتى وجد الشيطان له هاديًا ودليلًا، ووضعا معًا خطة سيكون تنفيذها في الثلث الأخير من السَّحَر، وعندما أرخى الليل ستائره، وراح البخاري في نومٍ هادئٍ وسكينة يعرفها ذوي النفوس الصافية، وغطَّ أصحاب السفينة في نومٍ عميق، إذ بصرخات تشق سكون الليل، وصيحات تضج مضاجع الهاجعين.

فانطلق القوم يبحثون عن الصارخ؛ فإذا باللص يضرب صدره، ويلطم خديه؛ فبادره أحد الراكبين سائلًا:

ماذا أصابك؟ أم فقدت صوابك؟

اللص: بل فقدت كل مالي، صرة فيها ألف دينار،

فسأله الناس في شفقة وذهول، وكيف فقدت ذلك المال الوفير، أم كيف ضاعت تلك الدنانير؟ وهي تربوا عن الخمسة كيلوات من الذهب؟

اللص: لابد أن في السفينة خائن، وخبيث كالأفاعي، جاءني عند نومي وسرقها من متاعي.

- وما الذي تريده الآن؟

- أريد أن نبحث في متاع وثياب كل مَنْ على السفينة ولسوف نجد سارق الذهب، والصرة الثمينة.

وبعد بكاء اللص ورجائه، وتحت تأثير عويله، وتهويله بدأ أصحاب السفينة في فحص رُكَّابها واحدًا تلو الآخر؛ فلم يجدوا مع أحدٍ منهم شيئًا

حتى جاؤوا إلى البخاري فاستحيوا من وقاره، وهزّتهم هيبتُه.

ابن أبي حاتم الورَّاق مدافعًا عن البخاري: كيف تفعلون هذا بإمام أهل الحديث بل كيف تظنون مثل هذا الظن فيه؟

اللص: لم يبق إلَّا محمد بن إسماعيل الذي يدَّعي أنه من المُصدِّقين، الآن سنرى إن كان من الصادقين.

وبالفعل بدأت عملية البحث في متاع البخاري وثيابه، ولكنها المفاجأة الصادمة، لم يجدوا مع البخاري شيئًا.

فأعاد اللص البحث لمرَّتين، فانقلب خاسئًا وهو حسير.

فأصبح اللص في صدمة صادمة، ومفاجأة لاجمة، وهو يحدث نفسه في ذهول: أين الألف دينار؟!

أين صرة الذهب؟!!

كيف فَسَدت الخطة؟

ولم يُفق من صدمته إلا على ما يسوءه، بتوبيخ النَّاس له، والتنكيل به جزاء كذبه وبهتانه، وجزاءً له على تخريفه وهذيانه.

أما البخاري فقد اعتذر له أهل السفينة وقبَّلوا رأسه.

وفي لحظات هدأت العاصفة، وعمَّت السَّكينة السفينة.

وعاد النَّاس إلى مضاجعهم في سلام.

الورَّاق: الحمد لله الذي ردَّ عنك كيد الكائدين، وانتحال المبطلين.

البخاري: صدقت يا ورَّاق، الحمد لله على نعمه الكثيرة فهي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

الورَّاق متعجبًا: ولكن أين خبأت الألف دينار؟

البخاري: لم أخبئ الدنانير.

الورَّاق: أين هي إذًا صرة الذهب؟!!

البخاري: ألقيتها في البحر.

الورَّاق وقد فتح فاه، واحمرت عيناه: ألقيت ألف دينار من الذهب في البحر؟!

البخاري - نعم

الورَّاق -كيف تصبر على إلقاء كل ما تملك بيدك في قاع البحر؟

البخاري: لقد أفنيت عمري في جمع حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، واجتنبت من أجله الشبهات حتى لا يدخل على أهل الحديث شبهة، فيزهد النَّاس في تعلمه.

فكيف لو تكلم النَّاس أن البخاري الذي يروي حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد اتُهم في سرقة؟

من أجل ذلك ألقيت الذهب، ثم أردف قائلًا:.

لحديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فما بال الذهب.

الورَّاق: ذهب الذهب، وبقي علمك يا بخاري... يا أمير أهل الحديث.

وكيف جمع الصحيح؟

هذا ما حدثني عنه البخاري عندما سألته.

يا أبا عبد الله ما الذي دفعك لتجميع الصحيح؟

البخاري: كنا عند إسحاق بن راهوية، فقال لو جمعتم كتابًا مختصرًا لصحيح سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح.

الورَّاق: ولكن رأيتك جمعت كثيرًا من الحديث والذي وضعته في الصحيح قليل.

البخاري: صنفت الجامع الصحيح من ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة، وجعلته حجة بيني وبين الله.

الورَّاق وقد تأمل ما قاله البخاري مستكثرًا تلك السنين: ألا تخبرني بما فعلت في هذا الزمن الطويل؟!

البخاري: لقد صنفت الصحيح ثلاث مرات، كلما

فرغت منه خفت أن يكون قد فاتني شيءٌ، فأعيد تأليفه وتصنيفه من جديد.

وما وضعت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، واستخرت الله تعالى، وتيقنت صحته.

الورَّاق: وأين جمعت الصحيح يا أبا عبد الله؟

البخاري: كتبته مرة في المسجد الحرام، ورتبت تراجمه بين قبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنبره.

ثم يصمت الورَّاق ويفتح خزانة ذاكرته ليقرأ منها صفحة رآها ويسترجع مشهدًا كان فيه حاضرًا:

لقد كنت مع البخاري ذات مرة حينما كان يؤلف كتاب التفسير من كتابه الصحيح؛ فكان يقوم في الليلة الواحدة خمس عشرة مرة إلى عشرين مرة في كل ذلك يأخذ القدَّاحة بيده، ويُسرج، ويخرج أحاديث فيعلِّم عليها ثم يضع رأسه.

كان البخاري يجلس كعادته بدون حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الروضة بين منبر الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وبجوار البيت الشريف الذي يحوي أطهر جسد لآخر نبي، وأعظم رسول بعثه الله للناس صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كان يجلس ها هنا حيث كان يجلس طالبي العلم من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حياته؛ فيأخذ ميراث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث قسمه ووزعه، وينهل من تركة حديثه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيث تركها وكأن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ زال حيًا يُعلِّمه ويهديه

## وأعظم ما يكون الشوق شوقًا

## حين تقترب الخيام من الخيام

كان البخاري يعلم أن حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليس ككلام البشر لكنه وحيٌ من الله سبحانه لرسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ فحرص على أن يسمع الناس حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما تفوَّه به من فمه الشريف صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فلم يرضى أن يكون في سند الحديث كذَّابًا ولا وضاعًا، ولا مدلسًا.

بل لم يرض أن يكون في الرواية رجلٌ فيه أدنى شبهة وأراد أن يسمع الناس كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قاله وخرج منه، فما لم يكن على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دينًا فليس بدين، فأخذ يصفي وينقح، وينقي، ويصحح.

حتى قال:

ما وضعت في كتابي إلا الصحيح وما تركت من الصحيح أكثر.

فكانت تركته من الحديث علمًا مصفىً، ووحيًا طاهرًا، وسُنَّة محفوظة.

وليزيد الأمر تأكيدًا عرضه على علماء العصر وفُرداء الدهر.

كأمثال (أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، ويحيى بن سعيد القطان...)

وهم أعلم الناس بالحديث وطرقه وصحيحه من سقيمه .

وأقرَّ له جميعًا بالصحة والسلامة من العلل، وأقرُّوا بأن ما في صحيح البخاري حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا ريب.

فما أورده البخاري في صحيحه فهو دين، وما دوَّنه من أدلة في وحي، وما اصطفاه من الحديث فهو الصحيح، ومن وثَّقهم فهم العدول.

يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا

وهذه آثار الصحيح فقد تلقته الأمة بالقبول، وأقرَّه العلماء وشرحه الفقهاء، وطلوع الشمس دليلٌ على الشمس.

كالبدر حيث التفت رأيته

يهدي إلى عينيك نورًا ثاقبًا

كالشمس في كبد السماء وضوؤها

يغشى البلاد مشارقًا ومغاربًا

فمن حارب البخاري فإنما يحارب الدين، ومن أنكر صحيحه فهو ينكر صحيح السُّنة، ومن عاداه فقد آذنه الله بالحرب

ولكم من عائبٍ قولًا صحيحًا

وآفته من الفهم السقيم

وليست الهجمة لهؤلاء على البخاري، إنما الهجوم على ما جمعه البخاري من السنة المطهرة.

ولكان أعداء البخاري في زمانه هم الجهلاء فلم يزل هؤلاء يورِّثوا الجهل لمن تلاهم ممن خسروا عقولهم، وتركوا دينهم وفي النهاية لم يفلحوا.

"يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون".

كناطح صخرة يومًا ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

# الميـراث

عاد البخاري إلى بُخارَى وقد حصَّل ميراث النبوة إذ كان وريثًا لعلم الحديث وأخذ من تركته أَوْفر النصيب.

ولكنه ورث عن أبيه مالًا وتجارة، وأخذ معها خوفًا، وورعًا، فخلط العلم بالعمل، وسلَّط علمه على ماله ولم ينس آخر كلمات والده وهو على فراش الموت:

لا أعلم من مالي درهمًا من حرام ولا درهمًا من شبهة.

تلك الكلمات التي جعلت أعظم المحدِّثين يسير على منهاج أبيه ويسير في نفس طريقه من البعد عن الشبهات، وهو يعلم ما جاء في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة وخير دينكم الورع».

وهو الذي روى حديثًا هو ثلث الإسلام

«فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه»

وها هم الناس في سوق بُخارى المزدحم ينظرون إلى هذه البضاعة الكبيرة والأحمال الكثيرة في قافلة يقودها أحمد بن أبي حفص تلميذ والد البخاري

يا أبا عبد الله هذه بضاعة طيبة وربحها وفيرٌ إن شاء الله.

البخاري: بارك الله فيك يا أبا حفص تعمل في تجارتنا وتضارب بأموالنا فيجري الله الخير على يديك وبينما هما كذلك إذ دخل عليهما بعض التجار

- السلام عليك يا أبا عبد الله.

البخاري: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

التجار: إن بضاعتك هذه جيدة ونحن بحاجة إليها فسل ما شئت من الثمن؟

البخاري: لا بأس عليكم زوروني إلى غدٍ فأستخير وأجيبكم.

أحد التجار: يا أبا عبد الله سوف نعطيك خمسة آلاف درهم ربحًا على ثمنها.

البخاري: إتوني غدًا وأبشروا بما يسرَّكم إن شاء الله.

وفي الصباح قد علم تجار بُخارَى بالتجارة والبضائع لدى البخاري فأقبلوا يزيدون في الأثمان عنده كي يظفروا بها.

أبو حفص: يا أبا عبد الله نزيد بضاعتك ونعطيك عشرة آلاف درهم ربحًا عليها.

البخاري: قد بعتُها بالأمس.

أبو حفص: يا أبا عبد الله إنك لم تبع بضاعتك ولا وعدت ببيعها، إنما أجَّلت الردَّ إلى اليوم فقط، ولم تردَّ بعد

وأنت في حِلٍّ من ذلك البيع، فأعطها لمن زادك عشرة آلاف؟؟

البخاري: إني نويت البارحة أن أبيعها للأولين، ولا أحب أن أنقض نيتي.

اعطها إليهم يا أبا حفص.

أبو حفص: الآن تفوَّق الولد على والده.

فكان أبوك يعامل الناس فيجتنب شبهات المال والأعمال وأنت تجتنب شبهات النوايا والخفايا

وصدق الحسن البصري في قوله:

من أكل حلالًا أطاع الله شاء أم أبَى، ومن أكل حرامًا عصى الله شاء أم أبَى.

وفي اليوم التالي التقى أحمد بن أبي حفص مع محمد بن أبي حاتم الورَّاق خادم البخاري فتحدثا فيما كان في

تلك الليلة من البخاري وورعه.

أبو حفص: أرأيت ورعًا مثل هذا يا ورَّاق؟

الورَّاق: لقد أتيت أطلب العلم على أبي عبد الله فرأيت من حسن خلقه ما لم أره قبله حتى تمنيت أن أكون له خادمًا.

وما رأيته أنت في السوق، أرى أنا أضعافه في بيته وحلِّه وترحاله.

أبو حفص: ألا تخبرني ببعض أخباره عسى الله أن ينفعنا فنقتدي، أو يأتينا مثل ورعه فنهتدي؟

الورَّاق: سأخبرك بثلاثة أشياء كنت عليها من الشاهدين.

فالأولى، حادثة الوتد - قطعة من الخشب.

كان أبو عبد الله يحب الرمي وكان لا يكاد يُخطئ في إصابة هدفه، وفي يومٍ خرجنا إلى شاطئ النهر وجعلنا

نرمي فأصاب سهمُ أبي عبد الله وتد القنطرة التي على النهر فانشق الوتد، فلما رأى ذلك نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمي، وقال لنا ارجعوا فرجعنا.

البخاري وهو يتنفس الصعداء - يا أبا جعفر - الورَّاق - لي إليك حاجة

الورَّاق: نعم.

البخاري: تذهب إلى صاحب القنطرة فتقول: إنا أخللنا بالوتد فنُحب أن تأذن لنا في إقامة بَدَلَه أو تأخذ ثمنه، وتجعلنا في حلٍّ مما كان منَّا؟

الورَّاق: فذهبت إلى صاحب القنطرة فإذا به حُميد ابن الأخضر - من محبي البخاري وعلمه - فقال لي: أبلغ أبا عبد الله السلام وقل له: أنت في حلٍّ مما كان منك، فإن جميع مِلكي لك الفداء.

فذهبت إليه وأبلغته.

فلما علم البخاري ذلك تهلل وجهه واشتد فرحه

حتى قرأ في ذلك اليوم للغرباء خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم - أكثر مائة مرة من ثمن الورد.

أتدري ماذا يفعل بهذا المال الذي يكسبه؟

أبو حفص: لا .

الورَّاق: لقد كان البخاري ينفع خلق الله من الفقراء، والضعفاء، ويقول إنما تُنْصرون وتُرزقون بضعفائكم، فكان ينفق عليهم ويطعمهم ويكسوهم وكان يخص من ذلك طلبة العلم والشيوخ والمُحدِّثين وقد جعل لهم نفقة في كل شهر خمسمائة درهم ليفرِّغهم للحديث والعلم.

وكان يأخذ بيد صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله ما بين العشرين والثلاثين أو أكثر من غير أن يشعر بذلك أحد.

وكان لا يفارقه كيسه، ورأيته ناول رجلًا مرارًا صرة فيها ثلاثمائة درهم فأراد أن يدعو له فقال له البخاري

أرفق واشتغل بحديث آخر لكي لا يعلم بذلك أحد.

أما هو فلم يعرف في حياته الترف والبذخ في المأكل والمشرب، وأصبح الصبرُ والاحتمال طبيعة له، وربما يأتي عليه النهار فلا يأكل فيه رُقاقة من الخبز، وإنما كان يأكل أحيانًا لوزتين أو ثلاثة.

أبو حفص مقاطعًا: سبحان الله!!!

هكذا كان يعيش رُغم أرباحه من تجارته الحلال؟!

فكيف لو كان قليل المال؟

ضحك الورَّاق ضحكة أثارت فضول أبي حفص فبادره بالسؤال .

ما الذي يضحكك يا ورَّاق؟

الورَّاق: أتذكر يا أبا حفص عندما كان البخاريُّ في البصرة، وتأخرت في إرسال نفقاته إليه؟

أبو حفص: نعم أذكر هذا فقد كان منذ خمس سنين وقد تعطلت السفن لهياج أمواج البحر ولكن لم سؤالك؟! وما الذي فعله في تلك الأيام؟

الورَّاق: لقد أصابه الإعياء من شدة الجوع حتى أنه قد ضعف عن التحديث، وبعد أيامٍ من العناء أعطاني ملابسه لأبيعها في السوق لنأكل بثمنها ومنعني أن أخبر أحدًا بحالنا وكان يردد حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ «ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغنِ يغنه الله».

أبو حفص: وكيف كان المخرج من ذلك

الورَّاق: لقد افتقده عُمَر بن الأشقر وأصحابه في المسجد أيامًا فجاءوا يعودونه يظنونه مريضًا فوجدوه في بيته عريانًا ليس عليه إلا إزار واحد فاشتروا له ثيابًا وكسوة وتعهدوه حتى جاءت النفقة فرد عليهم أموالهم.

أبو حفص وهو يتمتم، - لو أراد أن يجمع المال بعلمه كما فعل غيرُه لسارت الدواب إليه محمَّلة بالذهب؟!

فبادره الورَّاق بضحكة أخرى قبل أن يجيبه.

لقد قلت هذا لأبي عبد الله مرة

فقال: وما عند الله خيرٌ وأبقى

ثم أردف الورَّاق سائلاً: يا أبا حفص أرأيت الرباط الذي على أسوار مدينة بُخارَى والذي كان يُبنى للمجاهدين في سبيل الله؟

- نعم.

- إن المال الذي بُنيَ به هو مال البخاري، وإنه كان يتقدم البنائين وينقل اللَّبن والحجارة فيحمله على رأسه ويرفعه إليهم.

ولكنا نقول له: يا أبا عبد الله هناك بشرٌ كثرٌ يودُّون إعانتك، فارفق بنفسك إنك تُكفى ذلك العناء.

البخاري: هذا الذي ينفعني.

وأظنه كان يفعل ذلك يتبع به رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في نقل الحجارة لبناء مسجده ومعه أصحابه، وكذلك في غزوة الخندق كان رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يحفر الخندق بيديه المباركة.

أبو حفص: سبحان الله لقد كان البخاري أمَّة في علمه و عمله و الآن نتعلم من صدقه و إخلاصه..

ولكم في الزوايا من خبايا ..

## الحلم مع العلم

كان يومًا طويلًا من التحديث والإملاء عاد بعده البخاري إلى بيته في المساء ومعه ضيوفه، وقد جهَّز أوراقه، وملأ محبرته ليدون لهم الحديث، وكان لديه جارية تخدمه.

الخادمة - هل لي بالدخول لآخذ البساط؟!

البخاري - حسنٌ

فدخلت الجارية مسرعةً، ولم تبصر تحت قدميها فأطاحت بالمحبرة فانسكب الحبر وتناثرت قطراته فمنها على الأوراق فأفسدتها، وأخرى على ثيابه فلوثتها.

البخاري وقد ضاعت منه ليلته وما كان ينوي

تدوينه لطلابه سائلًا الجارية

- كيف تمشين؟!

فالتفتت إليه الجارية وكأنها لم تدرك ما فعلت قائلة - إذا لم يكن طريقٌ فكيف أمشي؟!

فردَّ عليها البخاري، وقد بسط يديه

- اذهبي فقد أعتقتك.

فقيل له يا أبا عبد الله أغْضَبَتْكَ الجارية وتعتقها؟!

البخاري: إن كانت أغضبتني فقد أرضيت نفسي.

## رباعيات البخاري

جلس القاضي الكبير الوليد بن إبراهيم البخاري، وتفكر في سبب علمه ونمو فقهه، متذكرًا تلك الجلسة التي غيرت مجرى حياته، وبدَّلت مسار أفكاره، ولولاها ما جلس على منصة القضاء.

إذ كان ذلك في بخاري عندما عاد إليها إمامها محمد بن إسماعيل البخاري، وعندما بلغ الوليد بن إبراهيم مبلغ الرجال ذهب إلى البخاري ليتعلم الحديث.

الوليد: أيها الشيخ الجليل لقد تاقت نفسي إلى طلب الحديث، ولأكون من رواته وأرجو أن أتتلمذ على يديك.

استمع البخاري إلى كلمات الوليد وهو يسترجع ذكرياته في طلب الحديث، وأدوات تحصيله.

ناصحًا قال البخاري: لا تدخل في أمرٍ إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره.

الوليد: نعم يا سيدي؛ ولذلك جئت إليك ترشدني إلى طريق العلم الذي سلكته، وإلى الحديث الذي حصَّلته، كيف السبيل إليه، وأنَّى لي الحصول عليه؟!

البخاري: إذًا فعليك إدراك رباعيات أهل الحديث، التي بها عملوا، وعن طريقها حصَّلوا.

الوليد: وما هي تلك الرباعيات؟

البخاري وقد استجمع حياته واسترجع ذكرياته وحدد سيرته وما فيها من إنجازات، ولخَّصها في رباعياته:

- اعلم يا بُني أن الرجل لا يصير محدِّثًا كاملًا في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعًا مع أربعٍ،

لأربعٍ مثل أربع،

في أربع عند أربع،

بأربع على أربع،

عن أربع لأربع،

ولكل هذه الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع،

فإذا تمت له كلها هان عليه أربعٌ؛ وابتُلي بأربع،

فإذا صبر على ذلك؛ أكرمه الله في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع.

الوليد: ما ازددت بما سمعتُ إلا حيرة، ولا فهمٌ لي فيه ولا بصيرة؛ فوضح غامضه، وفصِّل مجمله، واشرح تفسيره.

البخاري: إذًا فاسمع، وعيَ:

أما الأربعة التي يحتاج إلى كتابتها فهي:

«أخبار الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وشرائعه، والصحابة ومقاديرهم، والتابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتاريخهم».

مع أربع وهي:

«أسماء رجالها وكناهم وألقابهم، وأزمنتهم»

في أربع أزمنة وهي عمرك:

«صغرك، إدراكك، شبابك، كهولتك»

ولا تهمل الحديث عند أربع:

«شغلك، فراغك، فقرك، غناك»

وتطلب الحديث بأربعة أماكن:

«بالجبال، والبِحَار، والبلدان، والبراري»

وتطلب الحديث من أجل أربعة أشياء:

«لوجه الله تعالى طالبًا لرضاته، والعمل بما وافق كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ونشر سنَّة النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين الناس وإصلائها بينهم، وحفظ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دينه وسنَّته»

ولا تتم هذه الأشياء إلا بأربع في عملك:

«الكتابة، واللغة، والصرف، والنحو»

مع أربع هي من عطاء الله تعالى:

«الصحة، والقدرة، والحرص على العلم، والحفظ»

فإذا صحت له هذه الأشياء؛ فإن عليه أربع:

«الأهل، والولد، والمالُ، والوطن»

وابتُلي بأربع:

«شماتة الأعداء، وملامة الأصدقاء، وطعن الجهلاء، وحسد العلماء»

فإذا صبر على هذه المحن؛ أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع:

«بعزِّ القناعة، وبهيبة اليقين، وبلذة العلم، والإمامة في الدين»

وسيكون في الآخرة مع أربع:

«النبيين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين» وحَسُن أولئك رفيقًا.

فقد أعلمتك يا بُني بمجملات ما سمعت من مشايخ الدنيا متفرقًا فأقْبِل الآن علي ما قصدتني أو دَعْ.

سرح الوليد بذهنه، وقد هاله ما سمع من قول البخاري؛ فسكت متفكرًا، وأطرق متأدبًا.

أما البخاري فقد أدرك ما أصاب الوليد من هول ما سمع، فربت على كتفه، وهدَّأ من روعه قائلًا: «فإن لم تطِق حمل هذه الشاق؛ فعليك بالفقه يمكنك تعلمه وأنت في بيتك قارٌّ ساكنٌ، لا تحتاج إلى بُعد الأسفار، وترك الديار، وزيارة الأقطار، وركوب البِحَار، وهو مع ذا ثمرة الحديث»

الوليد: فهل ترانِي إذا تعلمت الفقه قد ألحق بأهل الحديث درجاتهم؟

البخاري: ليس ثواب الفقيه بدون ثواب المُحدِّث في الآخرة، ولا عِزُّه بأقل من عز المحدِّث، فالفقه والحديث نوران خرجا من مشكاة واحدة، ولأساهما مُلِئَنَا من سلسبيل الوحي الطاهر، ومثلهما كشجرة وثمرتها.

فالحديث كالشجرة، والفقه والأحكام ثمرتها.

الوليد وقد أعجبه ردُّ البخاري وقد وقع في نفسه حبُّ الفقه لسهولة طلبه، وعظيم ثوابه؛ فأقبل على دراسة الفقه والأحكام حتى أصبح قاضي مدينة الرَّي، وهو القاضي أبو العباس الوليد بن إبراهيم البخاري.

## التلاميذ

وعاد الناس مرة أخرى، وسألوا محمد بن أبي حاتم الورَّاق: وماذا تعلم عن تلاميذ الإمام البخاري.

الورَّاق: لقد سألت الفربري علامة عصره

- كم سمع للبخاري عندما شرح كتاب الصحيح.

الفربري: لقد سمع صحيح البخاري من مؤلفه تسعون ألف رجل.

لقد أصاب البخاري الهدف وحاز الشرف

وهل تدري مَنْ هم تلامذته الذين تعلموا العلم

على يديه؟

إنهم الذين علَّموا الدنيا في جيلهم، والأجيال التي تلت جيلهم.

وسأذكر لك ستة منهم، هم أعلام الأرض وأئمتها:

١- الإمام مسلم «صاحب الصحيح».

٢- الإمام النسائي «صاحب السنن».

٣- الإمام الترمذي «صاحب الجامع» .

٤- الإمام الدارمي «صاحب كتب الحديث» .

٥- الإمام المروزي «صاحب المؤلفات النادرة» .

٦- الإمام ابن خزيمة «الفقيه صاحب الصحيح» .

٧- أبو داود «صاحب سنن أبو داود».

٨- ابن ماجة.

## السلطان

إن الصفراء تؤدي إلى السوداء، هذه الحكمة عن فتنة المال لمن يتبعه، وكان البخاري لا يتبع نفسه الدنيا بينما كان التجار يتهاونون في حقوقه طمعًا في حسن خلقه، ولين طباعه حتى قُطِع عليه مالٌ كثير فكان خدمه وعماله يشفقون عليه.

ابن أبي حاتم الورَّاق: يا أبا عبد الله هذا غريمك، لك عنده خمسة وعشرون ألف درهم وها هو قد أتى إلى قرية آمل بجوارنا، ينبغي أن تعبر وتأخذه بمالك.

البخاري: ليس لنا أن نروعه ونهجم عليه في مكان هو به آمن.

وما لبث إلا قليل وجاء غريم البخاري إلى حيث البخاري بغربه وخرج إلى خوارزم.

الورَّاق ومعه التجار ينصحون البخاري .

- ينبغي أن تقول لأبي سلمة الكسّاني أمير خوارزم ليأخذه ليعيد إليك مالك

البخاري: إن أخذت منهم كتابًا طمعوا منِّي في كتاب ولست أبيع ديني بدنياي، ولكن إتوفي به.

فلما جاء الرجل إلى البخاري.

- هل معك مالٌ لتؤديه إليَّ .

الرجل: لا يا أبا عبد الله .

البخاري: ولكم تستطيع أن تعطينا في كل عام

الرجل: أنا الآن فقيرٌ فلعلي آتيك بعشرة دراهم كل سنة وإنه لقليلٌ.

البخاري: ما عليك يا أخي قليل مالٍ ولا كثير وأنت في حلٍ من دينك.

## علماء وأمراء

فلقد حقدوا على الإمام البخاري وحسدوه، وأرادوا كسره فما استطاعوا، وركبوا في ذلك كل موجة وسلكوا من أجل تحقيقه كل طريق.

حتى وجدوا ضالتهم أنه وحش التعصب الكاسر، والتشدد الغادر

لينشبوا فيه مخالبهم، ولينهشوا فيه بأنيابهم

لقد انتشر أهل الرأي وتغلغلوا بين الناس حتى وصلوا إلى مجالس الأمراء والحكام وكان هؤلاء رأس مالهم القياس ومبلغ علمهم أقوال علمائهم، وهم يظنونها بمثابة الوحي ولها تقديس المقدسات، ومن ها هنا

يأتي البلاء وتظهر الفتن ويتكلم الرويبضة، الذين أخذوا يكثرون ويتغلغلون إلى مراكز الملك، وأماكن السلطان حتى صدَّروا إليهم «التعصب الأعمى لأفكارهم الشاذة».

وكان من هؤلاء حُرَيْث بن أبي الورقاء هو الذي دبَّر المؤامرة ضد البخاري وكان ما حدث من الفتن والمحن من أجل القياس بالرأي وتتبع الهوى فتنة خلق القرآن التي نشرها المبطلون ويقصدون منها نفي صفة الكلام عن الله وأن القرآن خلقه الله وليس كلامه ولا وحيه سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا..

إذ الذي أخرجها وتولى كبرها أحمد بن أبي دؤاد فنفثوها بين الناس ونشروها حتى استشرى شرُّها، وزاد من نارها أنهم لازالوا بالخليفة المأمون حتى أدخلوها عليه وأقنعوه بها.

وقد زار البخاري بغداد في أوائل تلك الفتنة وذهب إلى الإمام أحمد بن حنبل .

فقال له: تترك العلم والناس، وتصير إلى خراسان؟

ولكن الإمام البخاري لم يعلم أن هذه الفتنة سوف تبلغ ما بلغت من الشر فوجد نيران تلك الفتنة قد اشتعلت حتى أُرغم الناس على اعتناقها وأُوذي علماء الأمة الذين لا يقولون بها.

فحُبس علي بن المديني في مكانٍ مظلم ثمانية أشهر حتى كاد يفقد بصره .

وضرب أحمد بن حنبل إمام أهل السنة بالسياط وربط بالسلاسل وسجن حتى قال شباص التائب، وهو الذي كان يعذب أحمد بن حنبل: لقد ضربتُ أحمد بن حنبل ثمانية أسواط لو ضُرب بها فيل لنقبت عن جوفه ولو ضُرب بها جملٌ لقتلته.

وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي دخل فيها بغداد.

ولازالت تلك المرارة التي شعر بها في كلام الإمام أحمد وتحسره على حال الناس في ذاكرة البخاري حتى أنه سيذكرها في محنته هو نفسه.

## الفتنة

الورَّاق: لقد كان البخاري يرى في مصاحبة الأمراء إذلالًا للعلم وفي التزلف إليهم ضررًا على الدين.

فمن طلب المال بعلمه امْتُهِن، ومن وقف بعلمه على أبواب السلاطين اتُّهِم.

علم البخاريُّ أن كل غنيٍ أمام الله فقير، وكل عزيز تحت قدرة الله ذليل، فاستغنى بالله عن خلقه واعتز به دون سواه.

عاد الإمام البخاري إلى بُخارَى، واتجه إليه طلاب الحديث أفواجًا من كل مكان وقد أصبح البخاري هو العلم على علم الحديث وأصبح كتابه الصحيح هو قِبلة

الرواة والمتفقهين وظل أبو عبد الله البخاري يعلم الناس ويفقههم وينشر بينهم علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته.

ولكن هناك سُنَّتان عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقتدى به فيهما الصالحون فإذا فعلوا الأولى جاءتهم الثانية على إثرها لا تتخلف.

أما الأولى: هو فعل ما فعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتخاذ حياته سبيلًا.

وأما السُّنة الأخرى: فهي سُنة الابتلاء والتمحيص التي ترفع درجات الصادقين، وتفرق بين الدعاة بحق، وبين الدِّعين.

وكانت محنة البخاري في اثنين هما السلطان الجائر، والعالم الفاجر.

لقد تذكر البخاري الفتن التي عانى فيها المؤمنون من أجل دينهم، وفُتنوا على عقيدتهم، وكيف صبروا

حتى نُصِروا، وكيف تجبَّر المشركون ثم كُبِتُوا ودُحروا.

وكانت بداية الفقتة لما رأى خالد بن أحمد الذُّهلي أمير بُخارَى حب الناس للبخاري والتفافهم حوله أراد أن يستثمره لنفسه، ويلتصق به عسى أن يرفع به خسيسته فأرسل إليه بذلك .

رسول خالد: إن الأمير خالد ولِيُّ نعمتنا المُفدَّى يريدك أن تأتي إلى قصره.

البخاري: إني لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين .

وإن هذا العلم يؤتَى له ولا يأتي لأحد.

فأعاد الأمير خالد طلبه وأرسل رسوله مرة أخرى.

إن كنت لا تحب أن تأتي إلى القصر فلتجعل وقتًا خاصًا للأمراء لا يشترك معهم أحدٌ من العامة عندما تعلِّمهم.

قال البخاري: إن الأمراء في طلب العلم ليسوا بأفضل من عامة المسلمين، فإن أرادوا أن يطلبوا العلم فليأتوا إلى المسجد ليتعلموا في المسجد بين الناس كما فعل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفي بادئ الأمر نزل الأمير خالد على أمر البخاري، وأرسل أبنائه ليتعلموا في المسجد ولكن من وراء حائل بينهم وبين الناس.

ثم وجد الواشون ضالتهم لسكب الزيت على النار فأوقعوا بين البخاري والحاكم.

فأراد خالد بقوة السلطان أن يتحكم في البخاري وأن يجبره على ما يريد.

فكان رد البخاري الحازم: لن أذل لذي سلطان، ولن أستخدمه إلا لما أنزل من أجله، وهو نشر الوحي بين الناس.

البخاري: فإن لم يعجبك هذا فأنت السلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذرٌ عند الله يوم القيامة أني لا أكتم العلم.

ولعادة أمراء الشر وسلاطين السوء غضب الأمير خالد وأخذته العزة بالإثم.

ولما يعلم من حب الناس للبخاري لم يستطع أن يواجهه مواجهة الفرسان ولا أن ينازله منازلة الشجعان.

وإنما أراد أن يجعل له في إيذاء البخاري وكلاء ليحاربوه.

ويا حبذا لو كان هذا المحارب من الشيوخ أيضًا.

ولكن أي نوع من الشيوخ هم، إنهم شيوخ السلطان الذين يفتحون جيوبهم لكل من يملؤها ويبسطون ظهورهم لكل من يمتطيها ويؤجِّرون أفواههم لمن يطعمها.

فأتى خالد بجُرَيْث بن أبي ورقاء - من كبار علماء الرأي والهوى - فأخبره بمراده في إيذاء البخاري، فوجد

حُرَيْثٌ ضالته، وكان تالتهما الشيطان.

فوضعوا خطة لنشر الأباطيل عن الشيخ الجليل.

وهكذا سيرى الناس أن الخلاف بين العلماء وأنه خلاف رأي بين الفقهاء.

أما السلطان فلا دخل له في شئون العلم هذه.

وكما هو الحال في زمان يكثر فيه الفساد.

جنَّد الظالمون أذرعًا إعلامية، وأبواقًا دعائية تنفر الناس عن البخاري أو حتى تُصيِّدهم عنه.

وما كان فيهم من عيوب ألصقوها به، وما كان فيهم من مثالب رموه بها، وما كان فيهم من علل نثروها عليه، وكانت التهمة .

بأنه يقول: «إن ألفاظ القرآن مخلوقة» هذه الفرية نفسها هي التي حاربها البخاري ألَّف فيها البخاري كتابًا عظيم القدر وأسماه: «خلق أفعال العباد» يحارب من يقول بأن القرآن مخلوق ولكن كما قال القائل بدائه

رماني وكيف يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل وبعد نشر هذه التهمة بين أهل الرأي والهوى تجرؤوا وتكلموا بها على المنابر.

وقامت الأبواق الإعلامية بدورها بتمهيد الناس إما أن تكونوا مع البخاري ضد الأمير أو تكونو مع الأمير ضد البخاري.

فأشيعت هذه التهمة، واضطربت المدينة، واستفحلت الفتنة وكان لهم ما أرادوا.

يأتي الآن الحاكم الظالم الذي يتقمص دور السلطان الحكيم والإمام العادل بأن يأد الفتنة في مهدها، ويقطع رأسها ويقول كما قال مَنْ قبله إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد.

وهنا صدر الأمر السلطاني بإخراج الإمام البخاري من بلده التي وُلِد وتربى فيها، وأن يترك داره ودعوته، وهو الشيخ الكبير الذي تجاوز الستين من عمره.

ولكن ما عليك أيها الشيخ الحبيب فإنك قد اتبعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديثه وسنته والآن يفعل بك ما فُعِل به من قبل في إخراجه من قريته .

«ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم».

ألست أنت يا بخاري الذي رويت حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

وها أنت ذا مشيت على دربهم فأصابك مثل ما أصابهم وذلك من عاجل بشراك.

لكن البخاري يعلم جيدًا أن قوة المؤمن في قلبه وليست في جسده

فتجهَّز الإمام للخروج بجسده الضعيف ولم ينس أن يرشقهم بسهام الليل فدعا: «اللهم أَرِهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم» .

فما هي إلا أيام قلية وإذا بسوء الجزاء يحل بمن عَادَى الأولياء.

أما خالد الذهلي فقد عزله حكام خراسان من إمارة بُخارَى ثم حُبِّس على حمار ثم سجن حتى مات في سجنه.

وأما حريث بن أبي الورقاء عالم السلطان فقد ابْتلي بزوجته وأهله فرأى فيها ما يستحي المرءُ عن وصفه.

وأما الآخرون فمنهم من رأى سوء عاقبته في جسده أو ماله أو ولده.

وما ربك بظلام للعبيد.

خرج الإمام البخاري من بُخارَى حتى وصل إلى بيكند، وإذا به يجد ما تركه في بُخارَى ينتظره في بيكند،

فقد طاروا بالفتنة، وأشعلوا نارها، ودقوا ناقوس الحرب، وأطلقوا شرَّها، وقد أشاعوا هذا الإفك مرة أخرى في بيكند وإذا الناس فريقان يختصمان.

أحدهما يدافع عن الإمام البخاري، والفريق الآخر يسير مع أبواق الإعلام وأذرعته، وقد أسلم للكاذبين عقله ليفرغوا فيه نفاياتهم، وفتح لهم صدره ليملؤه بحقدهم الأعمى وكرههم

للحق وأهله.. والجاهلون لأهل العلم أعداء.

فرأى البخاري أنه لابد من تركِ بيكند فعلم أهل سمرقند بذلك فأرسلوا إليه يرجونه النزول عليهم.

فعزم الإمام البخاري متاعه وعزم على الرحيل إلى سمرقند.

وكما كان ترحاله في شبابه من أجل الحديث وطلب الحق ونشره، ها هو الآن في ترحاله إلى نفس البلدان، ولكن هذه المرة تطارده يد الشر وتلاحقه قوى الفساد، وهي ضريبة يؤديها لصدقه، وثمنًا يدفعه من أجل دينه.

وفي هذه الفتنة المُرَّة، والمحنة العسِرة!

قال الورَّاق: ما الذي تفكر فيه يا أبا عبد الله؟

الإمام البخاري: أتذكر كلام إمام أهل السُّنة أحمد ابن حنبل حين حذرني من هؤلاء ونحن في بغداد وقد كان محقًا في قوله مخلصًا في نصحه.

## الوفـــاة

الورَّاق: لقد أقام الإمام البخاري أيامًا في (خرتنك) في الطريق إلى سمرقند ولكنه علم بأن الفتنة التي أثيرت في بُخارَى قد اشتعلت نيرانا في سمرقند أيضًا، وأن الناس فيها قد انقسموا أيضًا إلى فريقين فلما رأى فتنة الناس في دينهم دعا الله: اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك

ولكن الله قيَّد لهذه الفتنة علماء صالحين بيَّنُوا كذبها فهدأت وانطفأت ولكن البخاري قد اشتد عليه المرض، ولم يستطع التنقل والسفر.

ومع إلحاح أهل سمرقند رضى الإمام بالذهاب إليهم وتهيأ للركوب ولبس خفيه وتعمم، فلما مشى قدر عشرين خطوة إلى الدابة ليركبها وبجواره رجلان يتهادى بينهما.

قال: أرسلوني فقد ضعفت

شعر البخاري أن زهرة عمره إلى ذبول وشمس حياته قد اتجهت للأفول وكأن يتمثل بهذا البيت عند فقد أحبته

إن عشت تُفْجَع بالأحبة كلهم

وبقاء نفسك لا أبالك أفجعُ

فوضعه الناس في الفراش فدعا بدعوات ففاضت روحه الطاهرة رحمة الله عليه المتابعة إلى يوم القيامة وأثابه عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن الإسلام، والمسلمين خير الجزاء.

فغُسِّل وكُفِّن، ودُفِن في مدينة (خرتنك) ودُفِن يوم عيد الفطر بعد صلاة الظهر.

وكان ذلك ٢٥٦ من هجرة الحبيب صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكان عمره اثْنَيْن وستين عامًا إلا ثلاثة عشر يومًا.

وكما بدأت حياته بالبُشرى .. فقد اخْتُتِمت بالبشرى أيضًا..

قال عبد الواحد بن آدم الطواويسي:

رأيت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في النوم ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع، فسلَّمتُ عليه فردَّ عليَّ السلام، فقلت: ما وقوفك هنا يا رسول الله؟

فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري

وكان هذا في الليلة التي مات فيها البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ.

# شهادات وأوسمة على صدر البخاري

## من معاصريه وتابعيه

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«لو كان الإيمان في الثريا
لبلغه رجالٌ من فارس» [رواه مسلم].

**قال قتيبة بن سعيد الثقفي:**

«لو كان البخاري في الصحابة لكان آية».

**وقـــال:**

«جالست الفقهاء والزُّهَاد والعُبَّاد

فما رأيت منذ عقلت مثل محمد بن إسماعيل،

وهو في زمانه كعمر في الصحابة».

**قال شعبة:**

«والله ما رأيت مثله».

**وقال بندار:**

«محمد بن إسماعيل أفقه خلق في زماننا»

**قال الحافظ رجاء بن المرجا:**

«فضل محمد بن إسماعيل على العلماء
كفضل الرجال على النساء».

**وقال:**

«هو آية من آيات الله تمشي على ظهر الأرض».

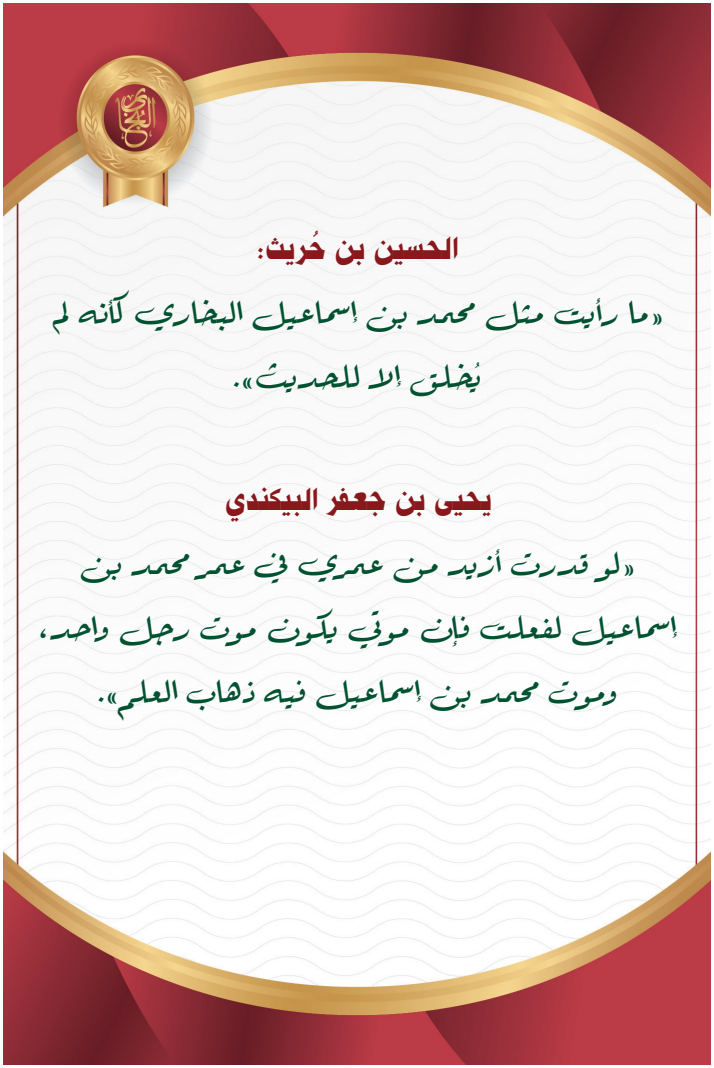

**الحسين بن حُريث:**

«ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل البخاري لأنه لم يُخلق إلا للحديث».

**يحيى بن جعفر البيكندي**

«لو قدرت أزيد من عمري في عمر محمد بن إسماعيل لفعلت فإن موتي يكون موت رجل واحد، وموت محمد بن إسماعيل فيه ذهاب العلم».

**قال له أهل بغداد:**

المسلمون بخير ما بقيت لهم

وليس بعدك خيرٌ حين تفتقد

**ابن خزيمة:**

«ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من

محمد بن إسماعيل»

**أبو عمر الخفَّاف:**

«البخاري أعلم بالحديث من أحمد وإسحاق وغيرها

بعشرين درجة».

**قال عبد الله بن حماد الآمُلي:**

«لوددت أني كنت شعرة في جسد

محمد بن إسماعيل».

**وقال موسى بن هارون الحمَّال:**

«لو أن أهل الإسلام اجتمعوا على أن يُنصِّبوا آخر

مثل محمد بن إسماعيل لما قدروا عليه».

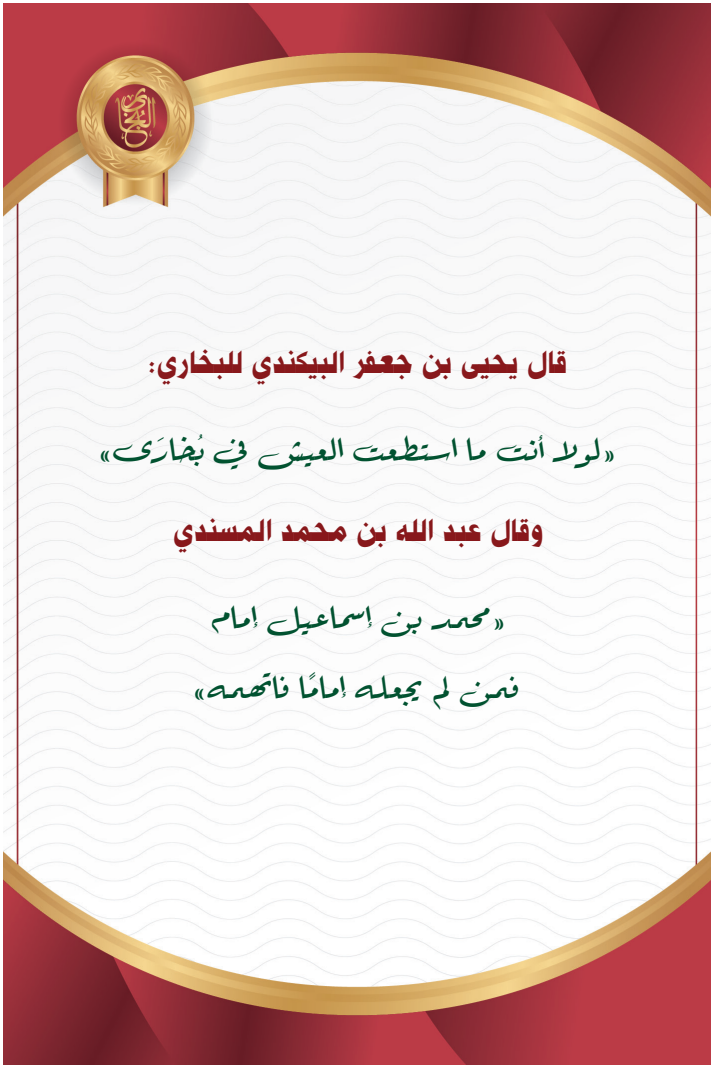

**قال يحيى بن جعفر البيكندي للبخاري:**

«لولا أنت ما استطعت العيش في بُخارَى»

**وقال عبد الله بن محمد المسندي**

«محمد بن إسماعيل إمام

فمن لم يجعله إمامًا فاتهمه»

رحم الله البخاري

وعلماء الحديث الذين حفظوا

للمسلمين سنة رسول الله ﷺ

وأسكنهم فسيح جناته